الفصل الثاني

أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن وخلفاؤه

لولا أن قيّض الله ليوسف رجلاً داهية هو القاضي أبو الحجاج يوسف بن عمر لذهب ملك الموحدين بدداً (أجزاء) .

إذ لم يكد يوسف يتولى الحكم حتى ثارت فتنة قادها أخواه محمد وعبدالله والي قرطبة، ولقد أزيح محمد من ولاية العهد لأن أباه شك في صلته بزعماء المؤامرة التي تعرض لها بوهران سنة ٥٥٦هـ.

أحب شعب الموحدين يوسف لأنه أقر العدل ورفع المكوس، واستطاع القاضي القضاء على الفتنة فعاد الإخوة متحابين.

انطلق يوسف يمكّن لنفسه ويوحد أركان المملكة الشاسعة، فقبض على أعنة الحكم، وأحسن اختيار أكفأ الرجال لمناصب الدولة؛ حتى لقد تولى العالم القرطبي أبو الوليد بن رشد مناصب الفقه والقضاء وأمانة الخزائن وطبيب القصر تباعاً.

وحرص أبو يعقوب على تولي قيادة الجيش بنفسه، بعد سنتين من وفاة أبيه خرج أبو يعقوب في جيش ضخم ليلقى جيش ابن سعد أمير بلنسية الذي انضوى تحت لوائه القشتاليون وهزمه هزيمة مرّة.

وفي صفر سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧١م، عبر أبو يعقوب البحر إلى الأندلس ومضى إلى إشبيلية وعقد اجتماعاً للولاة والأمراء، ولم تلبث بلنسية أن سقطت في يد الموحدين بعد سنة، فمات ابن سعد كمداً، فأسرع أبناؤه يحالفون يوسف، فتزوج من أخت لهم توطيداً للصداقة بين الطرفين.

وخلال مكثه بالأندلس أربع سنوات استطاع يوسف أن يكتسح أراضي قشتالة، وأن ينشئ مسجداً عظيماً بإشبيلية، وقنطرة من السفن على نهر الوادي الكبير، ثم عاد إلى مراكش سنة ٥٧١هـ.

لكنه نشط إلى الغزو من جديد سنة ٥٨٠هـ، فسار إلى سبتة إلى أن اجتمعت لديه جيوش أمراء الأندلس والمغرب، فعبر إلى جبل طارق، وضرب الحصار على قلعة شنترين الواقعة على ضفة نهر التاجة اليسرى، واستولى عليها في ربيع الأول من سنة ٥٨٠هـ.

لكن ما كاد الليل يرخي سدوله حتى زحفت جيوش التحالف النصراني على شنترين في جيش ضخم، هاجم الموحدين هجوماً مباغتاً، فقد قتل حرس يوسف، وحين هرع زعيم الموحدين يمتطي صهوة جواده أسقطته طعنة سيف غادرة، ولكن جيش الموحدين استطاع أن يلم شعثه، والتحم الفريقان في معركة دامية، ثم انسحب جيش الموحدين عائداً إلى إشبيلية.

لقد كان أبو يعقوب من القادة العظماء الذين حرصوا على جهاد المحتلين والقضاء على التحالف النصراني ضد ديار الإسلام، ويكفي أنه قضى شهيداً في ميدان الجهاد.

ثم وَلِي ابنه يعقوب عبدالله وتلقب بالمنصور بفضل الله، وكان ممن شهدوا مصرع أبيه في شنترين، وقد تولى قيادة الجيش بعدها وأفلح في العودة بالجيش، ثم تمت بيعته في مراكش في جمادى الأولى سنة ٥٨٠هـ.

لكن الثورات قامت، ونشط المرابطون مرة أخرى –وقد علموا بهزيمة الموحدين– إلى الاستيلاء على الأسطول في ميورقة، وأبحروا إلى ثغر بجاية بالجزائر واستولوا عليه، واتصلوا ببعض أقارب السلطان الجديد لتأييد الثورة، ومن أولئك أخو السلطان يحيى وعمر وعمه أبي الربيع، لكن المنصور استطاع أن يهزمهم في فاس، واسترد الثغر، وأخمد الثورات في الولايات.

ثم عبر المنصور إلى الأندلس بعد خمس سنوات لينتقم لمقتل أبيه، لكنه اضطر إلى العودة لنشوب الاضطرابات من جديد، ثم نهض إلى تونس وأخمد ثورة قامت فيها.

وكان النصارى ينتهزون الفرص للإغارة على الشواطئ، وأفلحوا في الاستيلاء على مدينة شلب، بيد أن الموحدين استردوها بعد شهور.

لقد انهكت الثورات والاضطرابات المتوالية صحة السلطان المنصور، فسقط مريضاً في مراكش، ولم يستطع قيادة الجيش بنفسه، هنا طمع ملك قشتالة في القضاء على الموحدين، فكتب إليه خطاباً يدعوه إلى القتال، وقال له:

إن كنت عجزت عن الحركة إلينا فوجّه لي المراكب أجوز فيها جيوشي إليك حتى أقاتلك في أعز البلاد عليك.

وعندما قرأ يعقوب هذا الخطاب انتفض غضباً، وقرر أن يقضي على غطرسة الملك الصليبي، وأذاع الخطاب في جنوده، فتصاعد حنقهم على الملك النصراني وسعوا إلى الجهاد، وأمر السلطان يعقوب ولده محمداً بالرد على الخطاب فكتب على ظهره الآية الكريمة من سورة النمل: ﴿ **ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾.

دوت صيحة الجهاد في كل الأنحاء، واحتشد ليعقوب جيش ضخم وفي العشرين من رجب ٥٩١هـ، سار على رأس الجيش إلى قشتالة، واستشار قادته، فأشاروا عليه بتنصيب قائد عام لجيشه، فوقع اختياره على الوزير أبي يحيى بن أبي حفص، كما أشاروا بضرورة أن يتولى زعماء الأندلس قيادة جيوشهم، وقد كان.

وفي التاسع من شعبان سنة ٥٩١هـ، وقعت معركة الأرك الشهيرة، وفي صباح ذلك اليوم قص السلطان على جنود رؤيا رآها أذكت حماستهم للحرب. لقد قص عليهم أنه رأى في منامه فارساً على فرس أشهب خرج من السماء بيده راية خضراء يبشره بالنصر من عند الله.

ولم يلبث الجيش أن انطلق للحرب، لكن انقضت عليه جنود التحالف بضراوة، وقتل القائد العام أبو يحيى، ولما ظن النصارى أن لواء النصر قد انعقد لهم واطمأنوا إلى ذلك، إذا بجيش الإسلام الاحتياطي يقوده عبدالله بن صناديد ينطلق مباغتاً لهم ويخترق قلب جيش النصارى الذي يقوده ملك قشتالة، ثم ينساب جيش يقوده السلطان نفسه إلى المعركة، وتنجلي المعركة الشرسة عن إصابة ملك قشتالة ومصرع جند كثيف من النصارى، لكن أفلحت مجموعة من الجنود في إنقاذ حياة ملكها بسحبه بعيداً عن الميدان.

لقد سقط في تلك المعركة التي تسمى موقعة الأرك نحو ثلاثين ألف جندي نصراني قتيلاً، واستولى الموحدون على معسكرهم، واقتحموا حصن الأرك وقلعة رباح.

بعد خمس سنوات نشط يعقوب إلى حصار مدينة طليطلة عاصمة قشتالة، بيد أنه عندما طال الحصار، ونفذت مؤن الموحدين اضطر إلى سحب الجيش والعودة إلى مراكش.

ولم يلبث ملك قشتالة أن سعى إلى الهدنة، فرحب المنصور بعقد الهدنة ليتفرغ لإدارة شؤون البلاد، وما كاد ينتهي من عقدها حتى جمع الولاة والقادة وألزمهم طاعة ابنه محمد الذي ولاّه العهد، وبعد بضع سنوات توفي يعقوب بقصره في مراكش في ربيع الأول سنة ٥٩٥هـ/ كانون الثاني ١١٩٩م.

لقد كان ذلك الرجل من أعظم ملوك الموحدين خلقاً وعلماً وحباً لنصرة الدين، وقد كان له الفضل في الحفاظ على دولة الموحدين قوية راسخة البنيان.

سقوط دولة الموحدين:

والآن نسرع الخطى لنقف على زوال دولة الموحدين وأسباب ذلك.

لم يكن السلطان محمد الناصر الذي خلف أباه يعقوب قوي الشكيمة ولا داهية، وسرعان ما انهزمت جيوش الموحدين انهزاماً بشعاً في موقعة العقاب مما سارع بالقضاء على سلطان الموحدين في المغرب، وشجع انتصار تحالف النصارى ملك قشتالة على التطاول على ثغور الأندلس.

لقد غادر السلطان محمد ميدان الحرب منهزماً إلى إشبيلية، وهناك قضى بالإعدام على قادة جيوشه وزعماء الأندلس، ثم عاد إلى مراكش زاهداً في القتال.

obeikandl.com

ولم ينس أن ينصب طفله (وكان في العاشرة) ولياً لعهده وترك لوزرائه شؤون الحكم.

وفجأة دس له الخدم السم في طعامه، فانتهت حياته في العاشر من شعبان ٦١٠هـ الخامس والعشرين من كانون الأول ١٢١٣م.

وتولى أبو يعقوب المستنصر بالله الخلافة وهو دون الحادية عشرة، وقد أدى هذا إلى طمع الوزراء والحاشية وأعمامه ولاة الأندلس في السلطان، وتوفي عندما هاجمته بقرة بقرنيها فتوفي لساعته في ذي الحجة ٦٢٠هـ.

هنا طمع أعمامه في العرش، وألفوه شاغراً وسانحاً للقفز عليه واندلعت الحرب الأهلية بينهم، لكن استطاع عمه أبو مالك عبدالواحد الوثوب على العرش.

أما ولد يعقوب المنصور، عبدالله أبو محمد، فقد وثب على الأندلس وأعلن نفسه أميراً على مرسية وتلقب بالعادل بالله، وأوعز إلى أصدقائه وأنصاره بمراكش بالثورة على أبي مالك عبدالواحد، فخلعوه في صفر ٦٢١هـ وقتلوه، ولحقه العادل بالله، فقد اجتمع عليه أنصاره بمراكش وعزلوه وقتلوه بعد أن ألقى نفسه في أحضان ملك قشتالة.

ولم يلبث والي بياسة أن تولى قائداً عاماً للموحدين تحت ظلال ملك قشتالة الذي سارع بالاستيلاء على بياسة وبعض المدن الأخرى، وكان مصرع أبي محمد في شهر شوال سنة ٦٢٤ هجرية.

وكان رأس الفتنة ومدبرها أبو علي إدريس والي الأندلس وشقيق العادل قد أفلح بعد الدس لأخيه أن يطيح به، وأن يعتليَ العرش باسم المأمون، لكن حمّام الدم لم يجف؛ إذ حسب أن بإمكانه أن يلغي فكرة مؤسس دولة الموحدين المهدي، وأن يقضي على دعوته، ولقد كتب وثيقة يعارض بها المهدي ونظام حكومته، وعمل على إصلاح دستور دولة الموحدين، وفزِع الولاة والأمراء من هول الأمر، ورأوا في ذلك مساساً بكرامتهم، وسعوا إلى إضعاف شأن المأمون والقضاء عليه.

ثارت حرب أهلية؛ فقد حلّ المأمون مجلس الخمسين والسبعين، لكن المجلسين أفلحا في تجاهل الأمر وأعلنا بطلان حكومة المأمون، وسرعان ما نادى شعب الموحدين بولد الخليفة محمد الناصر يحيى خليفة للموحدين وأقسم له الولاء وهو في الرابعة عشرة من العمر، ولقبه بالمعتصم، ثم بادر الشعب فانضوى تحت لوائه وجهز له جيشاً بقيادته للقضاء على المأمون.

لكن المأمون خرج في جنده وقد أحسن الاستعداد ولقي جيش الخليفة الجديد وسحقه في شذونة، ففر المعتصم إلى شعاب الجبال ريثما يعيد ترتيب قواته ليلقى المأمون في معركة فاصلة.

وانبرى المأمون إلى مقاتلة أهل قشتالة، فدهمهم وهزمهم في سنة ٦٢٥هـ، وحصن حدود الأندلس، ثم آب إلى المغرب وأنزل بالمتآمرين أشد العقاب؛ إذ قتل أكثرهم.

ثم انطلقت قواته إلى الولايات تبطش بمن عاونوا على خلعه.

في هذه الآونة، وبينما المأمون مشغول بمطاردة خالعيه عن العرش إذا بخطر جديد يتمثل في محمد بن هود أمير سرقسطة الذي انتهز الفرصة وسارع بالاستيلاء على أراضي الأندلس، فاستولى على مرسية ونادى بنفسه أميراً باسم المتوكل على الله، ثم انقض على بقية المدن فابتلعها الواحدة بعد الأخرى.

سعى ابن هود إلى احتضان المعتصم وأمده بالمؤن والرجال للقضاء على المأمون، وسرعان ما انطلق مواجهاً للمأمون فانتزع منه حصن غرناطة.

وإذا بزعماء الموحدين يهرعون لإلقاء أنفسهم في أحضان نصارى الإسبان.

لقد اتخذ المأمون اثني عشر ألفاً من القشتاليين جنداً له، صحبهم ليحموا مراكش من عدوان ابن هود والمعتصم.

وكان المقابل أن يتنازل لملك قشتالة عن عشرة من حصون الحدود، بل الأدهى والأمرّ أنه سمح له ببناء كنيسة في مراكش ذاتها.

لم يرض الأندلسيون بمحالفة النصارى على إخوانهم من المسلمين، فسعوا إلى معاونة خصوم المأمون ما وسعهم الجهد، وتخلى شقيق المأمون أبو موسى عنه، وانضم بقواته في سبتة إلى المخالفين له، واستطاع المعتصم دخول مراكش والاستيلاء عليها، وهدم الكنيسة وقتل النصارى بها.

هنا عمد المأمون إلى الفرار، فركب البحر وأدركه الموت في ذي الحجة سنة ٦٢٩ هجرية بعد أن حكم مدة خمس سنوات.

لكن يحيى لم يعد إلى السلطان؛ إذ سرعان ما تولى ابن المأمون محمد عبدالواحد الخلافة باسم الرشيد، وتوفي يحيى المعتصم بالقرب من فاس سنة ٦٣٣ هجرية.

حكم الرشيد المغرب إحدى عشرة سنة إلى أن جمح به جواده وغاص به في بركة بحديقة فغرق، وكان ذلك سنة ٦٤٠ هجرية.

obeikandl.com

وبعد موته نادى الموحدون بأخيه السعيد علي سلطاناً، وفي زمانه انقض بنو زيان وبنو مرين على المغرب طامعين في الوثوب عليها، لكنه استطاع هزيمة بني مرين بمعاونة النصارى الذين انخرطوا في جيشه، ثم هزم بعد ذلك على يد بني زيان أمراء تلمسان وقتل في المعركة سنة ٦٤٦ هجرية بعد أن قضى في الحكم ست سنوات.

بعد أن انتزع منه ملك قشتالة مدينة إشبيلية ظلت الأمور بين شد وجذب، إلى أن تحالف بنو مرين وإدريس الملقب بأبي دبوس، أمير الموحدين الذي خرج على المرتضى، الذي خلف السعيد على عرش الموحدين، وسلّم بني مرين مدينة مراكش فاحتلوها بطريق الحيل. ولما حاول المرتضى الفرار قتل غيلة على يد أحد عبيده في صفر ٦٦٥ هجرية.

وها هو إدريس يتولى عرش مراكش بمعاونة بني مرين، ويقبض على أبناء المرتضى ويلقي بهم في السجن، لكن بني مرين انقلبوا عليه وأخبروه أنه ليس إلا تابعاً لهم، وأن له أن يحكم في ظلّهم، وبالطبع فقد هاج إدريس وماج، وبعد معارك متصلة على مدى ثلاث سنوات قتل إدريس بعد أن مزق جيشه كل ممزق، في المحرم من سنة ٦٦٨هجرية (أيلول ١٢٦٩م)، على ضفاف نهر وادي النفير، وقتل من الموحدين خلق كثير وبمقتله انهارت دولة الموحدين.

وورثتها في المغرب دولة بني مرين.